اللغة والفكر

أ. د. إبراهيم إبراهيم بركات

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

اللغة والفكر

بحث ألقى بمؤتمر

«اللغة العربية وتحديات العصر»

مركز الدراسات المعرفية بالقاهرة

وكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

٤ نوفمبر ٢٠٠٨

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المقدمة

اللغةُ هي المقومُ الأساسُ لتكوِّنِ المجتمعات الإنسانية وترابُطها ، كما أنها الوسيلةُ الأساسُ لتقدم الحضارات في كل جوانبها ؛ فهذا العالـمُ عالَـمان : الموجودات والمكنونات والمتخيلات ، ويقابلُه ـ بالضرورة ـ عالـمُ اللغةِ . والعالـمُ الأولُ يقومُ على الفكرِ والتفكير والمعرفةِ والتحضرِ والإرادةِ والنشاطِ الفكري الداخلي ، ويكونُ هذا بوساطةِ اللغةِ ، وهي نشاطٌ حواريٌ، سواءٌ أكان ظاهرًا أم باطنًا . من كلِّ ذلك كان هذا البحث: «اللغة والفكر» . يهتمُ بحِوارِيَّةِ اللغةِ ، وكيف أن الحوار فكرٌ متبادلٌ ، وإثارةٌ لتفكير متصل ، والعلاقةُ بينَ اللغةِ والفكرِ قائمةٌ في كلِّ المراحلِ والجوانبِ ؛ منذُ تكوين الفكر في المهد الإنساني ، ونمو المرءِ في كلِّ مراحلِ حياتِه ، وهذا البحث يشير في إيجاز إلى أفكار شاملة العلاقة بين اللغةِ والفكرِ ، في كلِّ جوانبِ نشاطات المرْءِ وسكناته ، وكلِّ أعمالِه الجادةِ وغيرها ، وفي يقظتِه ومنامه ، وإننا جميعًا نلمسُ كل هذه الديناميكيات ، كلُ شخصٍ على حدةٍ ، أو مع مجموعِه المحيط به .

وقد قُسم البحثُ إلى أفكار كليةٍ تتضمن أفكارًا جزئيةً تنضوي تحتها ، وكلها أفكارٌ وإشاراتٌ ، حيثُ التلاؤمُ مع المقامِ ، وتنحصرُ هذه الأفكارُ ـ بعد المقدمة ـ في :

اللغة والفكر ، اللغة والتفكير ، اللغة والعقل ، اكتساب الطفل للغة ، اللغة والمعرفة، اللغة والفكر ووسائط أخرى ، ملخص فإثبات للهوامش.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وإذا دققنا النظرَ في إيجاز ـ في الأصولِ الدلالية للفظة اللغةِ ، فإننا نجد أن كلَّ ما يحيطُ بها يدلُّ على نشاطٍ متبادلٍ ، وتشاركٍ ضروري ، حيثُ :

لَغَى فلانٌ بفلانٍ إذا أُولِع به .

وفي الحديث : من قال يوم الجمعةِ والإمامُ يخطبُ لصاحبِهِ : صَهْ ، فقد لَغَا ، أي : تكلَّم .....

واللَّغْو : ما لا يعتد به لقلته .....

واللغة: اللَّسْن ؛ وحدّها أنها أصواتٌ يُعَـبِّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضِهم .

ومما سبق ذكرُه يَتبينُ لنا أن اللامَ والغَيْن وما يُثلِّثُهما إنما يتضحُ فيها معنى التشاركِ ، وما التشارك إلا نشاطٌ حواريٌ يقوم على إعمال الفكرِ للتفكيرِ وتحقيق التبادلِ والتفاعلِ بين الأطرافِ المشتركةِ .

وهذه أولُ إشارةٍ مهمةٍ لإثباتِ العلاقةِ الوطيدةِ المتلازمةِ بين اللغةِ والفكر .

ونناقش في إيجاز تلك الأفكارَ المقسمَ إليها البحثُ فيما يأتي :

أولا : اللغة والفكر :

تمثلُ العلاقةُ بين اللغةِ والفكرِ من حيثُ التأثيرُ والتأثرُ مِـحْورَ خلافٍ غيرِ محسومٍ؛لذلك فإنهما يشبهان دائـمًا بالبيضةِ والدجاجةِ،وأيهما أسبق؛ لكن الذي لا يجبُ أن يكونَ حولَه خلافٌ هو أن كلاًّ منهما يؤثرُ في ا لآخرِ ويتأثر به إلى حدٍّ بليغ . ولابدَّ أن نشيرَ في مجال هذه العلاقةِ إلى عدةِ أفكار :

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١ ـ إذا كان الاتفاقُ على أن اللغةَ وعاءُ الفكرِ ، ولا يتبادلُ الفكرُ إلا من خلالِ اللغةِ ، فإنه يتضحُ لنا مدى العلاقة الوثيقة بينهما ، تنشأ هذه العلاقةُ منذُ تكوينِ الفكرِ عند الطفل في المهد[١] ، واكتساب اللغةِ عنده ، ونُمُوِّ كلٍّ منهما في جميع أطوار نمو المرء .

٢ ـ الإعرابُ عن الفكر باللغة ، والإفصاح عنه للغير ، أو حبسه ومجرد مناجاةِ النفس به ؛ حقيقةٌ لابد أن تكونَ بالغةَ الأهمية ، وثيقَ الصلة بتكوين الفكرِ ووظيفته بوجهٍ عام ، وبمنطقِ الطفلِ بوجهٍ خاص[٢] .

٣ ـ ليست الفكرةُ منعزلةً عن الكلمة ، ولا الكلمةُ بمعزلٍ عن الفكرةِ ؛ لأن كلَّ واحدٍ منهما يتناولُ الآخرَ ، ولا يتناولُ على حدتِه خصائصَ الكل، بل لابُدَّ من استحضارِ الآخرِ[٣] .

٤ ـ اللغة لا تتمُّ إلا من خلالِ طرفين : المرسلِ والمستَقْبِل ، أو المتحدث والمتلقي، وبينهما وسطٌ ناقلٌ فيزيائي ، وهي بذلك تحتاجُ إلى دالةٍ ومدلولٍ، إلى فهمٍ وإفهامٍ ومفهومٍ ، وكلُّ ذلك يَتمُّ ، ولكن من خلالِ الفكرِ .

وإن صممنا على أن اللغة مجموعةٌ من الرموز لا غير ، وليست مجموعة من منتج الذهنِ والفكر ؛ فإننا لا نستطيعُ أن ننكرَ أن هذه الرموز لها مفهوماتٌ ، والمفهوماتُ ما هي إلا نتاجٌ عقلي محض ، يتضامنُ في إيجادها

(١) اللغة والفكر عند الطفل ٤١ وما بعدها / جان بياجيه ترجمة د . أحمد عزت راجح . النهضة المصرية ١٩٥٤ .
(٢) السابق ٧١ .
(٣) اللغة والفكر عند الطفل ٧١ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مناطقُ كثيرة في الذهنِ ـ كما أتصورَ ـ تتعلقُ بالسمع، والإدارك، والذاكرة، والنطق والمشاعر .... إلخ .

٥ ـ لا جدالَ في أن العلاقةَ بين اللغةِ والفكرِ علاقةٌ ثابتةٌ ، تؤدي إلى تكاملِ الفهمِ للمقروءِ والمسموع والمرئيّ ، كما تؤدي إلى سرعةِ الإفهامِ ، وتعملُ على تنمية موهبة الابتكار والإبداع من طريق التبادل الإنساني اللغوي ، وهو في حقيقته تبادلٌ فكري .

والعملياتُ الفكريةُ أو المنطقيةُ تبقى عملياتٍ فرديةً ، وتفتقُ الإحكامَ الذي ينشأ من التبادل والتعاون بين الأفراد ، وهم الذين يؤدون اللغة ويفكرون كلاًّ منها من خلالِ الآخر . وبهذا المعنى المزدوج للتكثيف الرمزي والإحكام الاجتماعي تشكل اللغة إذَنْ شرطا ضروريا لتكون الفكرِ ....

٦ ـ عندما يختزلُ (واطسون) الفكرَ إلى لغةٍ داخلية ، فإننا نجد أن بعضَ العلماء ـ وعلى رأسهم بياجيه ـ يعارضون هذا الموقفَ أو هذا الاتجاهَ أثناءَ مناقشاتهم للعلاقاتِ بين الفكرِ واللغة .

وإنني لأرى أن ما يذهبُ إليه واطسون هو المقبولُ نظريا ؛ حيثُ إن المرءَ عندما يفكرُ يتخيلُ أو يشخصُ من يحاورُه ويجادلُه،وإن كان هذا نابعًا من داخلهِ ، فهو بمثابةِ الحوارِ الداخليّ، المستعملِ بالضرورة اللغة القائمة.

٧ ـ لا نستطيع أن نتجاوزَ القولَ بأن هناك بين اللغة والفكر دائرةً تكوينية ، بحيث يستندُ أحدُهما بالضرورةِ إلى الآخرِ في تكوينٍ متلاحمٍ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفعلٍ متبدلٍ ، إلا أن كليهما يرتبط في نهايةِ المطافِ بالذكاءِ نفسهِ الذي يشكلُ حالةً سابقةً على اللغةِ ومستقلا عنها [١] .

٨ ـ إن البناءَ اللغوي في حد ذاته قائمٌ على إعمالِ الفكرِ . فاللغةُ ـ وإن كانت قوالب ـ فإنها تحتاجُ إلى جانبٍ كبيرٍ في بنائها إلى الاختيار ، وما الاختيارُ إلا فكرٌ حواري ذاتي يقوم على التفكير .

ولا نستطيع أن نفصمَ الفكرَ عن اللغةِ ، حيثُ :

يسمعُ المتلقي جملة ـ (لفظا ومعنى) ، فيؤدي به طبيعته الفكرية أو ميوله الفكرية إلى تحليل لفظة ما بالتساؤل ، أو غيره ، أو جملة ما بتساؤلٍ أو تعجبٍ أو إقرارٍ أو غيرِ ذلك .

وغيره يقبل ما سمع،ولا يجهد فكره في استيعاب المفهوم الكامل..إلخ.

وغيره ينصرف .... وغيره يرفض ..... إلخ .

وغيره يضيف ألفاظا أخرى ، أو جملا أخرى .....

وهكذا تختلف التأثراتُ وردُّ الأفعالِ من شخصٍ إلى آخر ، وما هذه الاختلافاتُ إلا دليلٌ على إعمالِ العقلِ والفكر وهما يختلفان بين الأفراد .

ثانيا : اللغة والتفكير :

لقد عرضنا جوانب من العلاقةِ بين اللغةِ والفكرِ في القسم السابقِ ، ونعرضُ في القسم الحالي العلاقة بين اللغةِ والتفكير ، وبين الفكرِ والتفكيرِ

(١) اكتساب اللغة ١٥٠ ، مارك ريشل ، ترجمة د . كمال بكداش ـ بيروت ١٩٨٤ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فارقٌ ينشأ من بنية الكلمتين ، فالفكرُ هو الاسمُ الذي يطلق على نتائج التفكير ، حيثُ إن العملية الحادثة إنما هي تفكيرٌ يؤدي إلى فكرٍ وأفكارٍ ، وأنبه إلى عدةِ نقاطٍ لإبرازِ هذه العلاقة :

١ ـ من الخطأ أن نعتبرَ التفكير والكلامَ عمليتيْن غيرَ مترابطتين[١] ،

مشيرين في هذا المقام إلى أن بعض البحوثِ في هذا المجالِ تذهبُ إلى الافتراضِ بأن الفكرةَ والكلمةَ منعزلتان ، عنصران يستقلان ، وأن التفكيرَ اللفظيَّ أو اللغويَ ثمرةُ اتحادهما الخارجي ، وهذا يوقعُ في الخطأ والوهم ؛ ذلك لأننا إذا تناولنا كلا منهما على حدةٍ فإنه لا يتمتع بخصائص الكلِّ ؛ إذ الترابُط قويٌ لا يمكنُ انفصالُه ؛ لذا كان مآلُ طريقةِ التحليل القائمةِ على هذا التصورِ إلى الفشل ؛ حيثُ تسعى إلى توضيح خصائصِ التفكيرِ اللفظي بواسطة تجزئتِهِ إلى عناصرِه المكونة : التفكير واللغة[٢] .

٢ ـ يميز علماءُ النفس بين نوعين من التفكير[٣] :

أولهما : التفكيرُ الموجه : يجرى في مستوى الشعور ، ويرمي إلى هدفٍ يكونُ ماثلا في ذهنِ المفكر ، وهو تفكيرٌ معقول ، ويمكن نقلُه وتوصيلُه بطريقِ اللغة . وهو فكر مركزي الذات ، أو فكر موجه منقول .

والآخر :التفكير الاجتراري (غير الموجه): وهو الذي يجرى في مستوى غيرِ شعوري ، فمشكلاتُه وأهدافُه لا تكون ماثلةً في ذهن المفكر ، وهو

(١) التفكير واللغة ٢٥٢ ، ل .س . فيجوتسكي ، ترجمة د . طلعت منصور ، مكتبة الانجلو ـ مصر ـ ١٩٧٦ .

(٢) ينظر الموضع السابق .

(٣) اللغة والفكر عند الطفل ٦٩ ، ٧٠ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تفكيرٌ غيرُ مكثف للواقع ، بل يوجد لنفسِه عالما من الخيال والأحلام ، وينزع إلى إرضاء الرغبات لا إلى تقرير ما هو حق وصواب ، وهو تفكير فردي صميم ، لا يمكن نقله وتوصيله كماهو عليه بطريق اللغة .

فالنوعان من التفكير قَوَّامان باللغةِ .

٣ ـ الإنسانُ حالَ تفكيرِهِ الإبداعي أو الخيالي يكونُ في حال مخاطبةٍ للنفس ، ويدور في داخله حوارٌ غير مسموع ، ولكنه منطوق داخليا ، أو متتبعٌ نطقيا ، فاللغة والفكرُ الناتجُ عن التفكير في هذه الحال متوحدان ومتحدان ، وأي ازدواج في أحدهما يؤثر في الآخر ، كما أن أيَّ ضعفٍ أو عائقٍ أو تدهورٍ في أحدهما يؤثرُ في الآخر .

يميز «بياجيه» ثلاث فئات من الإنشاء اللفظي عند الطفل : الترديد ، والمحاورات الذاتية ، والمحاورات الذاتية الجماعية[١] . ويذكر أن الطفلَ في المحاوراتِ الذاتية «يتكلم لنفسه كأنه يفكرُ بصوت عالٍ»[٢] .

ويرى أن اللغة المتمركزة على الذاتِ تشكل انعكاسًا للتفكير المتمركز على الذات[٣] .

٤ ـ علينا أن نتخيل كيف يتمُ التفكيرُ ، حيثُ إنه إرادةٌ وافتعالٌ واستثارةٌ تؤدي إلى إعمالٍ للمخزونِ الفكري والثقافي والتاريخي والنفسي ... إلخ ، فيحدث التفكيرُ الذي يمرُّ أولًا من خلالِ المعاني ، ثم الكلمات ،

(١) اكتساب اللغة ١٢٧ .
(٢) السابق ١٢٨ .
(٣) السابق ١٢٩ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فالجمل ، وهو بين هذا وذاك يدورُ داخليا أو خارجيا في وعاءٍ لغوي ، ويظهر ـ في أغلب جوانبه ـ في إطارِ لفظي .

وننبهُ إلى أنه لا جدالَ في أن معنى الكلمةِ خيرُ تمثيلٍ لوحدةِ التفكير اللفظي فهو مزيج قوي للتفكير واللغة ؛ بحيثُ يصعبُ معه أن نحدد ما إذا كان ظاهرة للكلام ، أم ظاهرةً للتفكير ، فالكلمةُ بدون معنى صوت فارغ .. ومعنى الكلمة ظاهرةٌ للتفكير بقدر ما أن التفكير يتجسدُ في الكلام[١] .

ثالثا : اللغة والعقل :

من الجوانبِ التي تنبِّهُ إلى العلاقةِ بين اللغةِ والفكرِ أو التفكير ما يمكنُ أن نشيرَ إليه من علاقةٍ أو تأثرٍ بين اللغةِ والعقلِ ، فالعقلُ أداةُ الفكرِ ، وما يكونُ بينه وبين اللغةِ يشير إلى وجودِ شيء بينها وبينهما . نشير إلى جوانب موجزة من ذلك فيما يأتي :

١ ـ العلاقةُ بين اللغة والدماغ أساسية[٢] وقد نشأ عن العلاقةِ دراساتٌ حول اللغويات العصبية ، وتعرف على أنها : فرع من اللغويات يتعامل مع ترميزِ المقدرةِ اللغوية في الدماغ . (هانك ١٩٨٦) .

وقد ضمت هذه الدراساتُ اختيار كيفيةِ تغير التنظيم اللغوي أثناء تطور الدماغ في مرحلةِ الطفولة[٣] .

---

(١) ينظر : التفكير واللغة ٢٥٣ .

(٢) الموسوعة اللغوية ، اللغة في الدماغ ٢ ـ ٤١٢ ، تحرير د . كولنج ن . ي ، ترجمة د . محيي الدين حميدي ، ود . عبد الله الحميدان ، جامعة الملك سعود ١٤٢١ هـ .

(٣) السابق ٢ ـ ٣٨٨ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٢ ـ كما أنه يبدو أن هناك علاقةً وثيقةً بين المقدرة اللغوية الفطرية والمقدرات الإدراكية العقلية العامة أثناء اكتساب اللغة[١] .

ولا أدلَّ على ذلك من تلك الفروقِ الفرديةِ في جانبِ اكتسابِ اللغة ونموِّها لدى الإنسان في مراحل نموه البيولوجي فالعقلي والفكري ، فكُلها منظومةٌ متكاملةٌ متساوقةٌ ، بين أجزائها تناسبُ .

ولذلك فإنه لا يجبُ أن نهملَ العلاقةَ بين التطورِ اللغوي للفرد وقدراته ـ إن سلبًا وإن إيجابًا ، وإن تخلفًا وتأخرا ، وإن تقدمًا ونموًّا ؛ مادامت أعضاءُ النطقِ قادرةً على أداءِ وظيفتها المكتسبة من حيثُ الأداءُ الصوتي اللغوي ، هذا بخلافِ القدراتِ الذهنية ، فبنسبة مقدرتها تكونُ مقدرةُ التطورِ اللغوي .

٣ ـ وفي هذا المجالِ لابُدَّ أن تبرزَ العلاقةُ بين الاضطراباتِ اللغويةِ أو الإعاقاتِ اللغوية ومصادرهِ العقلية والبيولوجية،وكلها تصدرُ من الدماغِ .

وترجع دراساتُ هذه العلاقةِ إلى خمسةِ آلاف عامٍ ، إلى عهدِ المصريين القدماءِ ، حيثُ يوردُ كلُ من (هاورد وهاتفيلد) ملاحظاتٍ وردت في كتاباتٍ على نبات بردي مصري يعودُ لحوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد كيف للأذى الحاد الذي يصيب الصدغ ـ حيثُ يمكن رؤيةُ بعض أجزاءِ العظم المحطمِ داخل الأذنِ ـ أن يسبب فقدان القدرةِ على الكلام . ويعلقُ الطبيبُ الجراح عموتيب الذي يصفُ هذه الحالات الحزينةِ[٢].حيث ينتجُ

(١) السابق ٢ ـ ٣٦٠، لغة الطفل ١٠٦، د . حامد الشنبري، مطبعة النيل ، مصر ١٩٩٨ .
(٢) السابق ٢ ـ ٣٧١ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عنها الاضطراباتُ اللغوية . بعد عطب في الدماغ ، أي : علم دراسة الحبسة الكلامية .

وقد ألف تشومسكي كتابًا يحملُ عنوانَ اللغةِ والعقل ؛ ليكون دليلًا على وجودِ مساحةٍ من العلاقةِ بينهما .

٤ ـ إن دقَّقْنا النظرَ وعمَّقْنا التفكيرَ فإننا ندركُ أن فهمَ اللغةِ لابدَّ أن يسبقَ الإنشاء ؛ لأن المتحدثَ ينطقُ بما هو تعبيرٌ عن فكرٍ أو غيره ، ويظل يفكرُ في الانتقاءِ اللغوي لما يعتقدُ أنه ملائمٌ لفكرهِ .

فالحقيقةُ أن المتحدثَ يُشغِلْ عقلَه في مسارين من التفكير :

أولهما : التفكيرُ فيما يريدُ أن ينقلَه إلى مُخاطبيه أو قارئيه .

والآخرُ:التفكيرُ في المفردات اللغوية التي يترجم بها عن التفكير الأول.

وعندئذٍ لابدَّ أن يكونَ فاهمًا للغةِ،مستوعبًا إياها،خازنا لها في ذاكرته...

لهذا نجدُ أن كثيرًا من الأطفالِ يُصوَّبون ما يسمعونه من أخطاءٍ طبقا لمدى معرفتهم باللغةِ ، ومدى استيعابِهم لمفرداتها ، وتمرِّسهم على قواعدها وتراكيبها .

ونجد أنهم كثيرًا منهم ينحتون ـ أو يصنعون ـ ألفاظًا فيها قياسٌ لغويٌ ـ ربما يحارُ له البالغ ـ ، مثل : جَرَّس : (استخدام الجرس) .

٥ ـ كما أننا لابدَّ أن نفكر في أن البناءَ اللغويَّ يسير في طريقيْن :

أولهما : البناء اللغوي العام ، وهو ما تنطوي عليه اللغةُ من قواعد معقدةٍ في كلِّ جوانبِها:الصوت، والكلمة، والجملة ، والدلالة ، والمعجم،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذه لا جدال في اعتمادِها على العقلِ اعتمادًا كليًا ، سواء أكان ذلك في جانبِ نطقِ الأصوات بيولوجيا ، والتحكم في ذلك بواسطة المخ والأعصاب والعضلات ، والأخيران يتحكمُ فيهما المخ ، أم في جانب بنية الكلمة واختيار ما هو مقصودٌ بنيويا ومعجميا ودلاليا متناسقا مع ما يسبقُها ، وما يلحق بها ، وما يتزاوجُ معها تزاوجًا حقيقيا أو بلاغيًا ، وكل هذا يكون بفعلِ مناطقَ عديدةٍ في أجزاء المخ .

أم في جانب بناء الجملة من خلالِ تراصِّ الكلماتِ المختارة عقليا ، والمقصودةِ فكريا وشعوريا ، والمنقحةِ تفكيريا وتحاورًا ذاتيا ، والمقبولة والصحيحة بنيويًا ، وكلُّ هذه عملياتُ تتم من خلالِ المخ ومناطِقه المعنية.

أم من الجانب المعجمي والدلاليَ اللذين يضبطان الاختيارَ والتدقيق فيه، ليؤدِّي ما يدورُ في داخلِ المتحدث ، في مخِّه وفكرهِ وتفكيره ومشاعره ... إلخ . وما يدورُ خارجه من طلب أو حدثٍ أو غير ذلك .

وكلُ هذه الجوانبِ المتصلةِ باللغةِ إعمالٌ عقليٌ من حيثُ : استقبالُـها ، واستيعابها ، وفهمها ، وتخزينُها ....

والآخر: البناء اللغوي الخاصُ :

أي : الخاصُّ بالموقف ، أو المقامِ ، أو الحالِ ، أو السياقِ ، أو النظم ، أو المناسبة ، أو غير ذلك مما يقتضي حديثًا أو تعبيرًا لغويا ، وكلٌّ له انتقاءاتُه اللغويةُ التي تعتمدُ على تفعيل العقلِ ، أو الفكرِ ، أو مجموعةِ مما يُسمَّى بالثقافة الشخصية .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٦ ـ هذاإلى جانب استحضار ما استُعرض من أفكارٍ في موضوعي اللغة والفكر ، واللغة والتفكير .

رابعا : اكتساب الطفلِ اللغة :

من أهم الأفكارِ المؤيدةِ والموضحة لارتباطِ اللغةِ بالعمليةِ الفكريةِ والفكرِ ما نتأملُه في مراحلِ اكتساب الطفلِ اللغة ؛ وتشيرُ في هذا المقام إلى ما يأتي :

١ ـ إن عمليةَ اكتسابِ الطفلِ للغة إنما هي ترتبطُ ارتباطًا وثيقا بالقدرات العقلية للطفل ، وتتوازي معها توازيًا متناسبًا ، فإذا كانت هناك عاهاتٌ نطقيةٌ فإنه يعوضُ عنها بطرقٍ تعبيرية أخرى .

٢ ـ لابدَّ أن ندركَ أن النموَّ اللغويَّ للطفلِ يسايرُ نموه البيولوجي ، وبالتالي يتناسبُ مع نموِّه العقلي والفكري .

٣ ـ نقيضُ ذلك مُستدعًى ؛ حيثُ إن تأخُّرَ الطفلِ البيولوجي الذي ينتج عنه تأخرُ في القدرات العقلية والفكرية يؤدي إلى إعاقاتٍ لغويةٍ مختلفة الأساليب[١] .

كما أن العاهاتِ العقليةِ تؤدي إلى عاهاتٍ لغوية .

٤ ـ الفروقُ الفرديةُ بين الأطفال في المسارين اللغوي والعقلي تشير إلى التلازم القائم والضروري بينهما .

---

(١) لغة الطفل ١٤٧ وما بعده .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خامسا : اللغة والمعرفة :

مادامت هناك علاقةٌ بين اللغة وكل من الفكر والتفكير والعقلِ فإن علاقتَها بالمعرفةِ تكونُ مؤكدةً ، إذ المعرفةُ ما هي إلا نتاجُ كلِّ ما سبق .

ونثبتُ إشاراتِ في هذا المجالِ من دراساتِ العلماءِ ، حيثُ[١] :

١ ـ يربط جريسيف (١٩٦١) وبريسون ومعاونوه (١٩٧٠) بين النشاطِ المعرفي واستعمال الكلمات .

٢ ـ أما نظرية برونر (١٩٦٦) فإنها تؤكد ميزةً مزدوجة ؛ حيثُ لا تعزلُ اكتسابَ اللغةِ عن باقي التطور المعرفي ، وتدرجُ هذا التطورَ في إطار الظاهرةِ الثقافية التي تشكلُ اللغةُ جزءًا مكونًا منها[٢] .

٣ ـ أما دراسةُ (هـ . سينكلير ١٩٦٧) [٣] : وهي بعنوان اكتساب اللغةِ وتطور التفكير ، وهي تعنى بأوجه من اللغةِ مرتبطةٍ بالمراحلِ المتعاقبةِ للتطورِ فإنها تنتهي إلى :

ـ أن النظامَ اللغويَّ ينبني عبر مراحل مماثلةٍ لمراحلِ التطورِ المعرفي .

ـ أن اللغة لا تولدُ العملية الفكريةَ ، ولكن العمليةَ الفكرية هي التي تسمحُ باستغلال اللغةِ بكل إمكاناتها التمييزية .

ـ أما أطروحةُ بياجيه فإنها تُخضعُ الجانبَ اللغويَّ للجانبِ المعرفي ، وتجعلُ الفصلَ بينهما شيئًا مستحيلا .

---

(١) اكتساب اللغة ١٦٧ وما بعدها .
(٢) السابق ١٦٩ .
(٣) الموضع السابق .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سادسا : اللغة والفكر ووسائط أخرى :

هناك جوانبُ أخرى تؤكدُ العلاقةَ بين الفكرِ واللغةِ حيثُ يتدخلان معًا فيها ، نشير إليها فيما يأتي :

١ ـ بناء الشخصية :

تحتل اللغةُ حيزا كبيرا في النظريات المتعددةِ حول تطورِ الشخصية ، فما يُضاف إلى خبرتنا الشخصية المعاشةِ لا يتكونُ في الواقع إلا بفضلِ المواد اللغوية التي تصنُعها الجماعة بتصرفنا ، فإذا لم تتوافر المادةُ اللغوية في مناسبةٍ معينة فإن وعينا بهذه المناسبة يتضاءل[١] .

والجماعة تُسهمُ بواسطة اللغة في تحديد شخصية أعضائها ، واللغةُ هي الشرطُ الأساسي لسمتين متكاملتين من سمات النوع البشري : الذاتية الفردية ، وظاهرة الحضارة .

وكل هذا يكونُ بفعل العقلِ وما ينتج عنه من أفكارٍ ، وما يكونُ فيه من مخزونٍ ثقافي .

٢ ـ اللغة والفكر والوعي الإنساني :

يربط «فيجوتكسي» بين اللغة والفكر والوعي الإنساني في قوله: «التفكير واللغة ـ اللذان يعكسان الواقع بطريقة تختلف عما يعكسه الإدراك ـ هما المفتاح إلى طبيعة الوعي الإنساني ، تقوم الكلمات بالجزء الرئيسي ، ليس ـ فحسب ـ في نمو التفكير،ولكن ـ أيضا ـ في النمو التاريخي للوعي ككل،

(١) اكتساب اللغة ١٩٠ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فالكلمة عالم أصغر للوعي الإنساني به»[١] .

٣ ـ التبادل الاجتماعي اللغوي :

ما الحوار والمشاحنات والمناقشات والندوات والمناظرات والمسرحيات وغير ذلك إلا حوارٌ وتفكيرٌ ، أي : فكر ولغة ، وهذا بَدَهي .

٤ ـ الجوانب البلاغية في اللغة :

في اللغةِ جوانبُ بلاغيةٌ تحتاجُ إلى إعمال للعقلِ ، ينبني على سرعةِ إدراك العلاقات المتشعبة لغويا وفكريا، سياقيا ومقاميا ، منها : الترادفُ والتضادُّ والمشترك اللغوي وكلُ ألوانِ البيان والبديع وأساليب المعاني .

هذه لا تفهم ولا تدركُ إلا بواسطة أمريْن متلازميْن : الاستيعاب اللغوي مع إعمال العقل أو الفكر .

فالإرادةُ والفكرُ يتدخلان في التفسير اللغوي للفظةِ ما في السياق ...

فمثلا عندما يقال : عينُ القومِ أصاب عينَ واحدٍ منهم بالأذى عينه .. فلتتخيْل العلاقاتِ المعنوية الفكرية التي تتدخلُ في مثل هذا التعبير لاستنتاج المدلول الصحيح لكلمة (عين) في موضعها ، مع أن مدلولها يختلف في كل موضع .

٥ ـ أثر الفكر في الضعف اللغوي :

لابد أن نشير هنا إلى الشكوى السائدة من الضعف الاجتماعي العام ، وعلاقة الضعف اللغوي بذلك ، حيثُ :

---

(١) التفكير واللغة ٣٠١ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ـ عدم إتمام عمليتي الفهم والإفهام إتماما شاملا .

ـ عدم إتمام عملياتِ التفكير إتماما سليما بسبب الالتباسات اللغوية بين المتحاورِين .

ـ المشكلات الاجتماعية المنتشرة والمتنامية بسببِ الفهم والإفهام ، وهما عمليتان لفويتان في المقام الأول .

ـ خمول العقل وخمول عملياته التي يقوم بها من : تفكير ومحاورة وبداهة ..... إلخ .

٦ ـ مغزى الكلمة ومعناها في العقل والموقف :

يذهب باولهان إلى أنه يغلب مغزى الكلمة على معناها ، ومغزى الكلمة هو مجموع كل الأحداث النفسية التي تتبدى في وعينا بواسطة الكلمة ، وله مناطق متعددة من الثبات غير المتساوى .. وتكتسب الكلمة مغزاها من السياق الذي تظهر فيه،وبالتالي تغير من مغزاها في السياقات المختلفة. أما المعنى فيظل ثابتا خلال تغيرات المغزى ، وليس المعنى القاموسي للكلمة أكثر من حجر في صرح المغزى[١] .

ويقول : إن مغزى الكلمة ظاهرة متغيرة متحركة مركبة ، فهي تتغير في العقول والمواقف المختلفة، وتكون في الغالب غير محدودة، وتشتق الكلمة مغزاها من الجملة التي تكتسب بدورها مغزاها من الفقرة ، والفقرة من الكتاب من كل أعمال المؤلف[٢] .

---

(١) السابق ٢٩٠ .

(٢) الموضع السابق .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والقاعدة الأساسية في الكلام الداخلي سيطرة المغزى على المعْنى ، والجملة على الكلمة ، والسياق على الجملة .

٧ ـ الجملة غاية اللغة ، وأثر الفكر في بنيتها :

لاجدال في أن الجملة هي غاية اللغة،حيث لا تكون اللغةُ إلا من خلال جملة ، ولا يكون المعنى المفيد الذي يمكن نقله إلى الآخرين إلا بتمام الجملة . والجملةُ علاقات معنوية، وهذه العلاقات إنما تكون بين الكلمات المكونة للجملة ، وتنشأ هذه العلاقات من الجهات الدلالية المتنوعة للكلمة ، وبتداخل هذه الجهات الدلالية أو تضامنها أو تشابكها تكون العلاقات القائمة التي تكون المحصل الدلالي المفهوم من الجملة .

فالجملةُ إنما هي مجموعُ دلالات الكلمات وتشابكها بعضها مع البعض الآخر في ظل توافر العقد والتأليف ـ كما ذكر النحاة العرب ـ .

ولنا أن نتذكر أنه لما كانت الكلمة عضوا واحدا في مجتمع كبير يتألف من مجموعة كبيرة من الكلمات تتناسق وتتناظم لتؤلف معنى مفهوما ، وتتزاوج متوافقة لتؤدي هذا المعنى في أبلغ صورة ، كان النظر إلى كيفية تحقيق هذا التوافق والتزواج من أهم الدراسات اللغوية .

فبقدر مستوى التوافق والتزاوج بين الكلمات تكون البلاغة المبينةُ للمعنى في أدق وجه وأكمله ، ويكون النقل الصحيح والكامل لما يحيط بالإنسان ، كما تكون الترجمة الدقيقة والمؤثرة لما يكنه من أفكار وعواطف ومشاعر وأحاسيس .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وليس كل كلمتين تصلحان لتكوين جملة ، ولا عدة كلمات تصلح لذلك ، وإنما يتدخل في ذلك عدة جوانب :

ـ توافق الكلمات معنويا لتحقيق المعنى المراد .

ـ التزاوج الصحيح للكلمات ، سواء أكان لتحقيق صحة القواعد ، أم صحة التركيب الإفرادي ، أم الاستدعاء الواجب للكلمات لصحة التركيب ، أم لتحقيق صحة المعنى .

ـ الضوابط اللغوية التي يعنى بها قواعد بناء الجملة .

ـ الضوابط البنيوية للكلمات التي يعنى بها قواعد علم الصرف .

ـ التوافق التام بين المجموع الدلالي للجملة والسياق العام أو الخاص أو الموقف أو الفكرة أو النص .

كل هذه الجوانب تتضامن لتحقق جملة لغوية صحيحة قاعديا ، وصحتها قاعديا يتضمن صحتها معنويا ، وذلك دون النظر إلى ما يحاوله اللغويون المحدثون من استعراض منطقي مغالط من أن صحة القواعد لا يستوجب صحة المعنى ، فبدون المعنى لا يتحقق العقد والتأليف معًا . ولا يفهم المعنى إلا من خلال عرضه على قواعد التركيب .

فالقواعد هي الوسيلة لتحقيق الأهداف المنشودة من اللغة من خلال ربط الأصوات المنطوقة بالمعنى المراد، مرورا بمستويات التحليل اللغوي: الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي ، إذ هي الوسيلة التي يستعين بها المتحدث أو الكاتب لتوصيل ما يريده من أفكار أراداها . وهدفا إليها إلى المستمع أو القارئ ، فتكون عملية التلقي والفهم صورة لعمليتي التعبير

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والإفهام، أو عمليتي التحدث والاستماع ، بما يحكمهما من معايير منظمة للعلاقات المعنوية .

وارتباط الجمل بعضها بالبعض الآخر لتؤدي المفهوم المعنىَّ ؛ كل ذلك إنما ينبعُ من العقل ، ويدورُ فيه ، ويصاغُ ويحكمُ في مناطقهِ المعنية بما يدلُ دلالةً لا لَبْسَ فيها على التحامِ العلاقة بين اللغة والفكر والتفكيرِ ، وكلُّه منبعُه العقلُ أو الدماغ .

نتائج البحث :

يخلص هذا البحث (اللغة والفكر) إلى إثبات عدةِ نتائج ، منها :

١ ـ اللغة ـ لفظا ـ تدل على نشاط متبادل ، وتشارك ضروري .

٢ ـ العلاقة بين اللغة والفكر علاقة قائمة دائمة،يؤيدها أنهما متلازمان، واللغة وعاء الفكر ، وكيفية اكتساب الإنسان اللغة ، وأن اللغة دالة ومدلول ، وأن البناء اللغوي ذاته قائم على العقل ، إلى جانب التحاور اللغوي .

٣ ـ العلاقة بين اللغة والتفكير وطيدة ، حيثُ لا يكون أيٌّ منهما بعيدا عن الآخر ، والتفكير ما هو إلا حوار ذاتي أو داخلي ، ومعنى الكلام إنما هو ظاهرة للتفكير واللغة معا .

٤ ـ بين اللغة والعقل تلازمٌ تام ، فالعلاقة بينهما أساسية وتبدو في التناسب بين مقدرة كل منهما مع الآخر ، ولا جدال في العلاقة بين الاضطرابات العقلية واللغوية ، وما إنشاء اللغة إلا إعمال للعقل في مساري الفكرة والبناء اللغوي .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٥ ـ التأمل في اكتساب الطفلِ للغةِ يؤدي إلى إدراك العلاقة التامة بين اللغة والفكر والتفكير والدماغ،ويوضح ذلك إيجابية الاكتساب وقصوره.

٦ ـ لذلك فإن للغة علاقةً مستتبعةً بالمعرفة والنشاط المعرفي وتطوره .

٧ ـ واللغة والفكر معا متضامنين علاقةٌ لازمة بكلٍّ من الشخصية وتطورها ، والوعي الإنساني والنمو التاريخي للوعي .

٨ ـ من مظاهر علاقة اللغة والفكر ما يدور بين أبناء المجتمع من تبادل لغوي وما ينتج عنه من مظاهر اجتماعية ، والجوانب البلاغية في اللغة وكيفية فهمها ، والضعف اللغوي الاجتماعي ، ومغزى الكلمة ومعناها في العقل والموقف .

٩ ـ اللغة هي الشخصية ، سواء أكانت شخصية الفرد أم شخصية المجتمع ، وهي قائمة على إعمال العقلِ والفكرِ ، وبدونهما تُصبح هُراءً ، ويصبح المجتمعُ ضعيفَ الثقة في شخصيته .

١٠ ـ اللغةُ وسيلةٌ مهمةٌ لتكوين الفكرِ وتناميه ، والفكرُ وسيلةٌ مهمةٌ لاكتساب المرءِ للغةِ الدقيقة .

١١ ـ الدقةُ في التعبير يدلُ على الدقةِ في الفكرِ والأفكار ، ونقيض ذلك قائم .